المحاضرة السادسة

(قبائل الهون – اصولها وتحركاتها نحو الغرب)

وهي من القبائل الاسيوية التي كانت تسكن منطقة السهوب الاسيوية بين جبال الطاي والاورال . ويتميز الهون عن الجرمان والرومان برؤوسهم المستديرة وانوفهم المسطحة وعيونهم الغائرة وشعرهم الداكن الاسود . وكانوا يعتمدون على الرعي في معيشتهم ، يتبعون العشب جنوبا في الشتاء ، وشمالا في الصيف، وتمتد مناطق تجوالهم مسافة الف ميل احيانا. والهون ماهرون جدا في ركوب الخيل وفي القتال والطعن من على ظهورها. وقد أكسبهم ذلك تفوقا على خصومهم ولما كانت معيشة الهون تعتمد على الرعي فإنها كانت مهددة بالجفاف من وقت لآخر ومتى ما فشلت مراعيهم فى سد حاجاتهم اندفع الهون بسرعة وعنف في مهاجمة من يجاورهم من الشعوب . وكانت مهارتهم المنقطعة النظير في ركوب الخيل وقدرتهم الفائقة على تحمل المشاق والجوع والعطش خير معين لهم لتحقيق ما يبتغون واغلب الظن ان اواسط آسيا عانت فترة من الجفاف طويلة امتدت على مدى اربعة قرون ، من القرن الثاني قبل الميلاد الى القرن الثاني بعد الميلاد .

بدأ الهون تحركهم من مناطقهم الاصلية في منتصف القرن الأول قبل الميلاد متجهين في بداية الأمر نحو الحدود الصينية ، ولكن قدرة اباطرة الاسرة الهانية في الصين ، وقوة الاستحكامات الممتدة من اطراف شمال الصين الى تركستان الشرقية ، دفعت الهون بعيدا وانقذت الصين من دمار محتم . وبفشل محاولاتهم للتقدم شرقا تحولت قبائل الهون نحو الغرب. فتوغلت في روسيا ، واستمرت عملية هذا التوغل طيلة القرنين الاول والثاني للميلاد . وما ان حل القرن الثالث الا وكانت قبائل الهون قد اتمت طرد شعوب السارمايتين سكان السهوب في جنوب روسيا ووصلت جحافل الهون الى اوربا في القرن الرابع فاكتسحوا مملكة الغوط الشرقيين في جنوب روسيا واخضعوا قبائلها لهيمنتهم سنين طويلة . ثم واصل الهون زحفهم غربا وهاجموا الغوط الغربيين والوندال ، الأمر الذي دفع هؤلاء الى الفرار والاحتماء بحدود الامبراطورية الرومانية . وقد فجر هذا الزحف الاخير الأزمة بين الغوط الغربيين والامبراطورية الرومانية .

معركة ادرنة واهميتها :

لجأ الغوط الغربيون عام ٣٧٦ الى الحدود الرومانية ملتمسين من الامبراطور فالانز السماح لهم بعبور نهر الدانوب والاستقرار في الارض الرومانية . واستجاب الامبراطور لطلب الغوط الغربيين وسمح لهم بالعبور ، وربما

كان يرى ان هذا في صالح الامبراطورية حيث انهم سيكونون حاجزا بينها وبين قبائل الهون في حالة استمرار تقدم هذه القبائل باتجاه الغرب. واستقر الغوط الغربيون في دالماشيا وتراقيا. وسرعان ما نشب خلاف بينهم وبين

الموظفين الرومانيين ، الذين تعسفوا في معاملتهم ، واحتجز وا عنهم المواد الغذائية ، وفرضوا قيودا على تحركاتهم . وتطور الخلاف الى حرب سافرة . واسرع الامبراطور فالانز على رأس قوة لم تعد اعدادا ملائما لمواجهة الموقف وتأديب الغوط الغربيين. وحدثت معركة ادرنة عام ٣٧٨ هزم فيها الرومان هزيمة ساحقة وقتل فيها الامبراطور نفسه.

وتمثل معركة ادرنة أول انتصار كبير حققه الجرمان على الجيش الرومان وقد اظهرت المعركة تفوق سلاح الفرسان السريع الحركة ، والذي كان الاساس في جيش الغوط الغربيين على سلاح فرق المشاة الرومانية. ولم يغادر الغوط الغربيون الأرض الرومانية بعد هذه المعركة ، كما واخذ الجرمان بشكل عام منذ هذا التاريخ يقيمون ممالكهم ضمن حدود الامبراطورية .

واختلف المؤرخون في تقديرهم لاهمية معركة ادرنة . فقد اعتبرها البعض من المعارك الحاسمة في التاريخ وقال عنها انها نقطة تحول في تاريخ الامبراطورية الرومانية والشعوب الجرمانية على حد سواء . وذهب فريق الى اعتبار سنة ٣٧٨ م نهاية المعصور القديمة وبداية للعصور الوسطى ومن هؤلاء المؤرخ المعاصر اميانوس مارسلينوس. في حين يرى البعض الآخر من المؤرخين ان معركة ادرنة لا تعدو ان تكون تمردا للجيش الغوطي الذي هو في الواقع جزء من الجيش الروماني . اضف الى هذا ان اثار الهزيمة كان مقدرا لها ان تزول في عهد امبراطور قوى وحكيم ومن حسن حظ الامبراطورية الرومانية أن الامبراطور ثيودوسيوس الاول ٣٧٩ – ٣٩٥ ، الذي خلف الامبراطور القتيل ، كان ممن تتوفر فيهم هذه الصفات فقد عقد هذا الامبراطور اتفاقية جديدة مع الغوط الغربيين سمح لهم بمقتضاها بالبقاء في الارض الرومانية كحلفاء (Foederati) وعفاهم من الضرائب وتعهدوا له مقابل هذا بالخدمة في الجيش الروماني . ولكن ثيودوسيوس كان آخر الأباطرة الاقوياء وقد خلفه ولداه الضعيفان هونوريوس الذي حكم الاقاليم الغربية من الامبراطورية ، واركاديوس الذي حكم الاقاليم الشرقية منها . وكان الغوط الغربيون قد جددوا تمردهم على السلطة الرومانية وقد اغراهم ضعف الامبراطورية بذلك . ولم يتورع ملكهم الاريك (Alaric) عن مهاجمة ايطاليا.

الغوط الغربيون ومملكتهم :

عاش الغوط الغربيون في الارض الرومانية في عهد الامبراطور ثيودوسيوس كحلفاء للامبراطورية (FoedcRaTi) وقد اطلق على ثيودسيوس من جراء ذلك لقب صديق الغوط ولكن الغوط استغلوا ضعف ابنه هونوريوس فعادوا الى مهاجمة الاقاليم الرومانية وكانوا هذه المرة تحت قيادة ملكهم الاريك (AlaRIC) وحاصرت جيوش الامبراطورية الشرقية والغربية قوات الاريك في البلقان وكادت ان تستأصلها ولكن امبراطور الشرق الضعيف اركاديوس ارسل اوامره الى القادة بالانسحاب والعودة الى القسطنطينية وايطاليا دون الحاق اي ضرر بالغوط الذين سماهم اصدقاء الامبراطورية المخلصين. وما ان اطمأن الاريك الى وضعه حتى جدد تهديده للامبراطورية ، واتجه هذه المرة الى ايطاليا نفسها . وتهيأ للرومان في هذا الوقت قائد جرماني مخلص و قدير

هو ستيليكو الذي استطاع ان يدحر الاريك عند بولنتيا عام ٤٠٢ ، وعند فيرونا وقد دخل هذه المدينة لاول مرة في عام ٤٠٣ حيث كان قبل ذلك مقيما في رافينا نظرا لانها محاطة بالمستنقعات ولقربها من البحر ، الأمر الذي يوفر الحماية لها في وجه تهديدات الغوط الغربيين .

وفي هذه الظروف ، حيث كانت الحكومة الرومانية بحاجة الى المزيد من القوات للدفاع عن ايطاليا اضطرت الى سحب قواتها من بلاد الغال و من بريطانيا واسبانيا الامر الذي كشف حدود هذه الاقاليم امام القبائل الجرمانية وبعد عام ٤٠٦ بفترة قصيرة اكتسحت القبائل الجرمانية بلاد الغال واسبانيا وشمال افريقيا . وهكذا اخذت الامبراطورية الرومانية في الغرب تتداعي بسرعة . وفي هذا الوقت الذي كانت فيه الامبراطورية بأمس الحاجة الى خدمات القائد ستيليكو اوغر الحاسدون والواشون صدر الامبراطور هونوريوس عليه فاعدمه . ولم يكتف بهذا بل نكل بجميع اتباعه واعوانه الامر الذي دفع بالكثيرين منهم الى اللجوء الى الاريك للاحتماء به. واستغل الاريك فرصة غياب ستيليكو عن الميدان فتقدم الى روما بعد شهرين فقط من مقتل ستيليكو . وضرب الاريك الحصار على المدينة في عام ٤٠٨ و عزم على امامتتها جوعا ، لاجبارها على التسليم. واخيرا قبل رفع الحصار عنها بعد ان دفعت له مبالغ كبيرة من المال ذهبا وفضة واطنانا من التوابل . وفي عام ٤١٠ اعاد الاريك حصار روما . وفي ليلة ٢٤ آب عام ٤١٠ فتحت له ابواب المدينة فدخلها واستباحها لمدة ثلاثة ايام. وقد هز هذا الحادث العالم الروماني ومع ان الخراب الذي لحق بروما من جراء هذا الاحتلال لم يكن جسيما ، وان احتلالها كان ضربة عنيفة لمعنويات الرومان ولكرامتهم. وقاد الاريك قومه بعد ذلك نحو الجنوب يريد عبور البحر الى افريقيا ، مخرباً في طريقه الى صقليا كل شي . واخيرا عندما وصل البحر حطمت عاصفة هوجاء

اسطوله فاضطر على العودة الى الشمال و مات فجأة في اواخر عام ٤١٠ . ودفن في فعر احد الانهر مع جزء من خزائنه وقتل اتباعه جميعا العبيد الذين اشتركوا في عملية الدفن كي يبقى القبر مجهولا ويحتفظ بسرية الموقع.

وخلف الاريك اخوه اثولف (Athulf) فاراد ان يجد موطنا لقومه بلاد الغال . وكان الوندال والسوفي قد سبقوه اليها وعاثوا فيها فسادا . وكانت الفوضى سائدا والعصابات من مختلف الانواع منتشرة في كل مكان. واتجه اثولف جنوبا فاحتل طولوز وبوردو. ودفعت المجاعة في بلاد الغال الغوط الغربيين إلى الذهاب الى اسبانيا واغتيل اثولف عام ٤١٥ وجاء بعده (وله) " .wallia " وأراد هذا عبــور البحر الى أفريقيا و لكن أسطوله تحطم في قادش واستأصل (وله) جيش الوندال في اسبانيا وحصر الوندال في جزء ضيق يقع في الشمال الغربي من هذه البلاد . وأخيراً أستقر الغوط الغربيون في منطقة اوكتين من بلاد الغال وامتدت منطقة نفوذهم من طولوز حتى المحيط الأطلسي ، وسكناهم في هذا الموقع جعلهم يعيشون بين أكثرية السكان الغاليين والرومان. وقد تأثروا بالحضارة الرومانية ، فأسسوا لهم نظاما ادارياً على غرار النظام الروماني . ثم اكتسحوا أسبانيا مرة أخرى ، ودحروا الوندال ، فاضطر هؤلاء الى مغادرة أسبانيا عام ٤٣٩ الى شمال أفريقيا.

وبلغت قوة الغوط الغربيين أقصاها في عهد ملكهم أرك (Euric) ، وكان هناك احتمال لأزدهار هذه الدولة ولأستمرارها. وقد شيد أرك له بلاطاً فخماً في طولوز على غرار بلاط الاباطرة الرومان . واعترف به الفرنجة والبرغنديون والسكسون وفي عهده وضعت أقدم القوانين الجرمانية المدونة. وتميز الغوط الغربيون بتعصبهم الشديد للاريوسية الأمر الذي أثار سخط المسيحيين الكاثوليكيين وحقدهم. وتوفى ارك عام ٤٨٥ و بعد وفاته بجيل واحد فقط تمزقت دولة الغوط الغربيين واستولى الفرنجة على اوكتين عام ٥٠٧ وانتزع منهم الغوط الشرقيون منطقة بروفنس . وبقى نفوذهم في أسبانيا الى عام ٧١١ حيث انتزعها منهم العرب المسلمون .

الوندال :

عبرت قبائل الوندال نهر الراين عام ٤٠٦ متوجهة الى بلاد الغال . ولكن ضغط الفرنجة هنا دفعهم للتوجه الى اسبانيا ولكنهم دحروا هنا على يد الغوط الغربيين فتوجهوا الى افريقيا عام ٤٢٩ .

وكانت ظروف شمال أفريقيا مشجعة للوندال . فقد كانت الفوضى ضارية أطنابها في أقاليمها والخلافات مستحكمة بين حكامها الرومان والثورات مستمرة . وقد دعا أحد الثوار ملك الوندال الكفوء جزريك (Gaisric) لغزو أسبانيا فلبى الدعوة في الحال . وعبر من أسبانيا الى شمال أفريقيا عام ٤٣٩ وكان عدد الوندال عند ذاك

ثمانين الف نفس منهم خمسة عشر ألف محارب . واعترف الامبراطور الروماني في عام ٤٣٥ بسيطرة الوندال على جزء مهم من شمال أفريقيا مشترطاً دفع جزريك مبلغاً سنوياً من المال من باب الاعتراف بالسيادة .

وتجاهل جزريك هذا الشرط ، بل انه تقدم الى قرطاجنة فاحتلها . وكان الوندال في هذا الوقت قد كونوا لهم اسطولاً قوياً فرض نوعاً من السيطرة على البحر الأبيض المتوسط وعلى اجزاء مهمة من سواحله . وعقد الامبراطور ثيودوسيوس الثاني في عام ٤٤٢ معاهدة اخرى مع الوندال اعترف له بموجبها بالسيطرة على اغنى المناطق ولم يبق للرومان سوى المناطق الداخلية الفقيرة الجرداء. وفاق الوندال الشعوب الجرمانية الاخرى في القسوة والعنف في معاملة السكان الخاضعين لهم . وقد صار اسمهم مرادفاً للظلم والتعسف عند الكثير من الشعوب الأوربية خلال العصور الوسطى .

ولم يكتف الوندال بما حصلوا عليه من شمال أفريقيا بل دفعتهم أطماعهم من جهة والاوضاع التي كانت سائدة في ايطاليا من جهة أخرى الى عبور البحر ومهاجمة روما فقد قتل ما كسموس (Maximus) الامبراطور فالنتين الثالث : ((Valen)(tilan)) وفرض نفسه امبراطور على روما وأجبر ارملة الامبراطور القتيل (Edoxia) على الزواج منه ، وقرر أن يزوج أبنه من ابنتها . فاستنجدت الارملة بجزريك ، وتوجه هذا باسطوله القوي ونزل ايطاليا وزحف على روما ولم يواجه مقاومه تذكر . وضرب الحصار على المدينة وحاول البابا ليو الأول التوسط ولم ينجح الا في الحصول على وعد من جزريك بعدم لجوئه الى القتل والحرق عند احتلاله المدينة . وسقطت روما بيد الوندال عام ٤٥٥ وقد الحق بها هؤلاء من الخراب والدمار ما فاق كثيرا الخراب الذي الحقه بها الغوط الغربون عام ٤١٠ وواصل الوندال فتوحاتهم فاحتلو صقليا وسردينا وكورسيكا وفرضوا سيطرتهم على البحر الابيض المتوسط . وفي عام ٤٧٦ ، اي قبل عام واحد من وفاة جزريك ، اعترف الأمبراطور الشرقي بكل فتوحات الوندال وعقد صلحاً معهم ولكن السلام لم يعد الى أفريقيا الا بعد فتوحات جستنيان عام ٥٣٤.

وضعفت دولة الوندال كثيرا بعد موت جزريك. وجاء الى الحكم بعده ((هلدريك)) (hilderic) وكان هذا رومانيا أكثر منه جرمانياً حيث كان قد تربى في بيئة رومانية واعتنق الكثلكة . وثار عليه أحد أقربائه غلمر وعزله عام ٥٢٣ . واتخذ جستنيان هذا مبرراً لمهاجمة شمال أفريقيا واحتلالها عام ٥٣٤ ، فدحر غلمر وأسره .

تجدد خطر الهون – اتيلا يغزو ايطاليا :

وتجدد خطر الهون على اوربا بعد أن أصبح اتيلا (Attila) ملكا عليهم وكان هذا ملكا كفؤا ولكنه كان مخيفا ومرعباً . وقد أطلق عليه معاصروه نقمه الله غزا اتيلا بلاد البلقان واجبر امبراطور القسطنطينية على دفع ضريبة له. وفي عام ٤٥١ وصل اتيلا بلاد الغال. وتحالفت الشعوب الجرمانية والرومان محاولة وقف تقدمه وحالفهم

الحظ فدحر اتيلا عند شالون سنة ٤٥١ واتجه اتيلا بعد هذه الهزيمة نحو ايطاليا حيث خرج ليو الكبير واقنعه بالعدول عن مهاجمة روما . وتوفى اتيلا في عام ٤٥٣ وانهارت مملكته ورجع قومه الى اسيا.

نهاية الامبراطورية الرومانية في الغرب :

حوالي منتصف القرن الخامس كانت الامبراطورية الرومانية في الغرب قد فقدت معظم اقاليمها في اوربا وشمال افريقيا . ولعل خروج البابا ، وعدم خروج الامبراطور ، لمقابلة اتيلا يوفر الدليل لفقدان الحكومة الامبراطورية منزلتها السابقة وهيبتها ، والسنوات الأخيرة من حياتها تميزت باعتلاء عدد من الاباطرة الضعاف لعرشها . ولم يكن لاولئك الاباطرة من السلطة سوى الاسم ، فقد انحصرت السلطة الفعلية بيد قادة الجيش الجرماني. وجات النهاية في عام ٤٧٦ . حيث قام احد القادة الجرمان اود واكر ، الذي كانت له الهيمنة على روما ، بعزل الامبراطور (رومولس اوغسطولس) ونفيه الى جنوب ايطاليا دون ان يعين خلفا له ، وارسل شارة الامبراطورية الى القسطنطينية.